«شبابيك»..
حَنين فوق نيل الزمالك

(١)

«جينا نمسيكم بالخير يالعمارة العمارة»، الصوت القادم من الكاسيت «السوني» الأحمر في غرفة عمي لم يكن واضحًا، تمامًا كالكلمات التي يغنيها هذا المطرب ولا أفهمها، بالنسبة لطفل في العاشرة لا تبدو أغنيات محمد منير شرارة توقد ذوقه الفني مبكرًا، ربما كان حميد الشاعري ومصطفى قمر الأقرب لي وقتها، لا أتذكر سببًا حقيقًا لإعجابي الخاطف بمصطفى قمر في تلك المرحلة، ولكنني الآن أجدني مقتنعا بأن محمد منير مطرب يسمعه الكبار، هكذا قال لي عمي عندما سألته: «لماذا تسمع منير»؟

بين المسافة من صيف ١٩٩١ إلى شتاء ٢٠١٦ تغير كل شيء في العلاقة بين أذني و«الملك»، ثمة قصص وذكريات وحكايات تجعل لكلمة «منير» معنى وأماكن نلتقي فيها كلما رافقني الحنين لحكاية كان صوته شاهدًا عليها، بداية من صيف حار في غرفة عمي في منزل العائلة بالفيوم، وصولًا لشتاء بارد فوق بار «روف توب» المطل على نيل الزمالك، فهمت لماذا ظل «منير» حاضرًا، ولماذا رافقني كظل منذ أن أثار فضولي لمعرفة من هي «ليلى» التي غنى لها، ولماذا يجرفني حنين مجنون لأيام مرت كلما سمعت «شبابيك»؟

كانت «شبابيك» نقلة في مشوار المطرب الشاب محمد منير، ثالث ألبوماته وأكثرها وضوحًا في مشروع فني وليد على أيدي عبد الرحيم منصور، ومجدي نجيب، وأحمد منيب، ولكنها لمسة يحيى خليل السحرية، الموسيقي العائد من أمريكا بثقافة «الجاز»، موسيقى طازجة تتفجر في تجاعيد حفرت ملامحها على وجه الأغنية المصرية طوال حقبة السبعينيات، سنوات رحيل العمالقة، والبحث عن بديل في أصوات لا تملك الجرأة على الخروج من برواز أصبح ضيقًا أمام عالم تتسع وتتمدد فيه كل المفاهيم والأفكار.

ثمة رصاصة للتغيير أطلقها هاني شنودة، وتحمّس لها عبد الرحيم منصور، ومعه أحمد منيب، وفؤاد حداد، وسار خلفها يحيى خليل، وفتحي سلامة بفرقة «يحيى خليل» التي انضم لها محمد منير في البداية، بعد أن استمع له عبد الرحيم منصور، وأقنع أحمد منيب أن هذا الشاب هو الرقم المتبقي لإكمال معادلة تبدأ بالفلكلور النوبي وتنتهي بتمصير «الجاز» على يدي يحيى خليل.

(٢)

لم يكن نجاح أول تجربتين لـ«منير» في ألبومي «بنتولد» و«علموني عنيكي» مدويًا، عملان أقرب إلى قراءة خجولة لذوق جيل يقف على عتبات الشباب، كان الجامعيون من مثقفي الريف أكثر حماسًا للمشروع، الجيل الذي تحمس لفهم أشعار «نجم» وألحان «الشيخ إمام» كقاعدة لمشروع الأغنية الحُرة، يتقبل الفكرة الجديدة شكلًا ومضمونًا،

ويدعم «منير» بقوة في مشروع «شبابيك» الذي حقق أعلى مبيعات في تاريخ ألبومات محمد منير، تصدّر الألبوم أغنية «الليلة يا سمرا» التي وجدت ألف تفسير أكثرها «عمقًا» أن فؤاد حداد كتب قصيدة طويلة في حب مصر، واختار فريق العمل ثلاثة كوبليهات تحديدًا لتمثل الأغنية، وأن مصر هي السمراء التى طلبت فستانها من الشط الآخر للقناة، فنهض المصريون، وحطموا خط بارليف، وعدى المعدي وعداها، وربما تكمن العبقرية أن لحن أحمد منيب جاء راقصًا رشيقًا في لوحة وزّعها يحيى خليل ليحلّق بمستمعيها عاليًا في حفلات الجامعات، وقت أن كانت معيارًا حقيقيًا لشعبية «منير»، قبل أن يصبح «ملكًا».

أتجوّل بين كل أغنيات «منير»، تخطفني دهشة ما في كل مرة، وما ألبث أن أعود مجددًا إلى «شبابيك»، تستقبلني بلسعة برد منعشة، وابتسامة نادل يعرف مشروبي المفضل، أجلس في أبعد زاوية إلى جوار السور كمن يحتضن النيل من الطابق العاشر، أشك أن شخصًا هنا تَمَرس على فتح الذكريات بمشرط حاد يخبئه في «قائمة الأغاني»، على الناحية الأخرى جلس رجل في مطلع الخمسينات يحاور خياله بمجرد أن قالت «ميادة»: «عسل ومر أنت.. وفاء وغدر أنت»، وفتاة هناك تقاوم دموعها عندما سمعت صولو الجيتار في أداء فرقة «مسار إجباري» لرائعة سيد درويش «أنا هويت»، أما أنا فأستعيد لقاءً قديمًا مع محمد منير قال لي فيه شيئًا من قصة «شبابيك»، كنت قد سألته: «هل ما زلت ترى الدنيا شبابيك»؟

قال وهو يجاهد لتليين مفاصل ذاكرته: هل تعرف أن مجدي نجيب كتب هذه الأغنية في السجن؟ كان معتقلًا في الستينيات، لم يكن لديه سوى شباك صغير يطل منه مختصرًا علاقته بالعالم في هذه النافذة الصغيرة، فكتب جملته «الدنيا شبابيك».

مجدي نجيب «شوكة الأحاسيس» كما لقّبه بليغ حمدي، هو مزيج مدهش من الفنون في قلب وعقل إنسان، شاعر وفنان تشكيلي، ولهذا ليس غريبًا أن تكون كلمات أغانيه أقرب إلى صور يغزلها الخيال، يصف مجدي نجيب «شبابيك» بالسنبلة الحزينة في بستان أغانيه، ومثلما كان الشباك فاصلًا بين عالمين في الحقيقة، كان أيضًا جسرًا بين عالمين في القصيدة.

رأى مجدي نجيب العالم من شباك، بينما عاد ليعاتب محبوبته مصر التي كانت سببًا في وجوده داخل هذه الزنزانة، عتاب محب وهو يقول: «سرقت عمري من أحزاني.. سرقته لكن ماجاني.. ولا حد شاف فين مكاني ورا الشبابيك».

ثم يعود مخاطبًا نفسه بشجن لا يخلو من جلد للذات، وهو يقول: «أنا بعت الدموع والعمر طرحت جنايني في الربيع الصبر.. وقلت أنا عاشق سقوني كتير المر ورا الشبابيك».

تخلي أحمد منيب عن اللحن الطربي كان عُرفًا في مزاج نوبي يسيطر على كل أعماله، ولكن يحيى خليل كموزع تخلى إلى حد كبير عن مدرسة الجاز مدركًا إمكانيات فرقته المحدودة، حيث لا يكفي أربعة أفراد فقط لتقديم خط وتريات ساحر كالذي لعب الصولو البديع في مطلع الأغنية، ليستمر

متصاعـدًا في الخلفيـة طـوال الأغنيـة.

يحكـي لي الموسـيقار فتحـي سـلامة سر طزاجـة أغنيـات ألبـوم «شـبابيك» قائـلًا: «هـذا الألبـوم سـجّلناه عـلى الهـواء، كان الجميـع يعملـون بنظـام الـتراكات الـذي بـدأ ينتـشر، أمـا نحـن فقلنـا سـنعزف الألبـوم عزفًـا حيًـا في الاسـتوديو، ولهـذا احتجنـا وقتًـا طويـلًا في البروفـات، عامًـا كامـلًا نسـمع ونلحّـن ونغنـي ونعـدّل، أذكـر أننـا لم نجـد مكانًـا لنجـري فيـه البروفـات، فسـاعدنا قسـيس في كنيسـة بمـصر الجديـدة، أعطانـا غرفـة كنـا نجتمـع فيهـا كل ليلـة لنجـري البروفـات حتـى صبـاح اليـوم التـالي، وعندمـا تيقّنّـا أن كل شيء عـلى مـا يـرام، سـجّلنا الألبـوم».

(٣)

وُلـد صـوت محمـد منـير كبـيرًا بكلـمات عمالقـة؛ مثـل فـؤاد حـداد، وعبـد الرحيـم منصـور، ومجـدي نجيـب، وصـلاح جاهـين، وألحـان أحمـد منيـب، وبليـغ حمـدي، وهـاني شـنودة، ولكنـه في الطريـق تخلى عنهـم، معتقـدًا أنـه قـادر عـلى الاسـتمرار والنجـاح دون أصحـاب المـشروع الحقيقيـين، وهـو مـا صرّح بـه في حـوار بمجلـة «الكواكـب» قائـلًا: «يمكننـي العمـل مـع شـعراء وملحنـين وموزعـين لا يعرفهـم أحـد، وأغنـي بهـم «ريـان يـا فجـل» وسـأنجح وأكـسر الدنيـا!».

كانـت النتيجـة مخيبـة جماهيريًـا وفنيًـا في سـنوات «الفجـل» التـي تـاه فيهـا مـشروع «منـير»، توهـة تجسـدت في إعـادة توزيـع أغـاني ألبوماتـه الخمـس الأوائـل، وطرحهـا في ألبـوم «مشـوار»

عـام ١٩٩١، وقتهـا قالـوا إن «منير» سـيعتزل، بينـما كـذّب هـو الشـائعة في العـام التـالي بصـدور ألبـوم «الطـول واللـون والحريـة» الـذي بـدا كمحاولـة لاسـتعادة بعـض مـن رائحـة تجاربـه الأولى، ولكـن ثمـة شيء انكسر في علاقـة «منير» بجمهـوره المؤمـن بـه كفكـرة ومـشروع، كان الآبـاء الروحيـون للتجربـة يراقبـون في صمـت، وهـو يقفـز مـن محطـة لأخـرى، حتـى وصـل إلى ألبـوم «افتـح قلبـك» عـام ١٩٩٤، بـدا «منير» ناضجًـا متخليًـا عـن حالـة «الزعيـق السياسي» التـي تلبسـته أعلاميًـا وفنيًـا، لحظـة قرّر فيهـا الانحيـاز للفـن، فتعـاون مجـددًا مـع عبـد الرحيـم منصـور، واسـتعان بحسـين الإمـام ملحنًـا، وفتحي سـلامة الصديـق القديم في فرقـة «يحيـى خليـل»، وتصـدّرت أغنيـة «لـو بطلنـا نحلـم نمـوت» الشاشـات كتعبير عـن عـودة قويـة لـ«منير» ولكنهـا لم تكـن كذلـك.

في عـام ١٩٩٥ صـدر ألبـوم «ممكـن»، وتأكـد معـه «منـير» أن فـراغ مجـدي نجيـب لا يمـلأه شـاعر آخـر، فكتـب لـه «ممكـن» و«حواديـت» الأغنيتـين الأبـرز في العمـل، ظهـرت بقـوة الشـاعرة كوثـر مصطفـى، بينـما اكتفـى الخـال «الأبنـودي» بأغنيـة «الليلـة ديـه».

استـمرارًا لنفـس الحالـة قـدّم «منـير» في عـام ١٩٩٦ ألبـوم «مـن اول لمسـة»، كتبهـا لـه أيضـا مجـدي نجيـب ولحّنهـا وجيـه عزيـز، ولم يكتـف «مجـدي» بهـا فقـط بـل كتـب لـه أيضًـا «يـا أنـا»، و«ليـلى»، اسـتعاد «منير» جمهـوره المخلـص، وفهـم هـذا الجمهـور جيـدًا أن مجـدي نجيـب هـو الجملـة المفقـودة في صـوت منـير طـوال السـنوات الماضيـة.

(٤)

في صيف ١٩٩٩ طرقت أبواب الجامعة، كنت أحمل إعجابًا صاخبًا بعمرو دياب، وأخبّئ تذوقًا خاصًا لمحمد محيي الغارق في الشجن، وفي قائمتي المفضلة يتربع دائمًا حميد الشاعري، ومن وراءه خفة الظل المتفجرة في صوت هشام عباس، إلا أن «منير» كان حاضرًا بألبومه «الفرحة»، صحيح أنه استعان بجيل جديد تعاون معه لأول مرة مثل الشاعر أحمد أبو ذكري وعبد المنعم طه، إلا أن مجدي نجيب كان حاضرًا أيضًا بأغنيتي «حاضر» و«إنتي» ليحتفظ لـ«منير» بنكهة المشروع القديم. ظلت أغنية «يالالي» التي كتبها حافظ الصادق، ولحّنها فوز الجمل تغريد واضح خارج السرب بسلطنة شرقية تدغدغ المشاعر، واستمرت حكايتي مع «منير» حتى دخل عالم المنتج نصر محروس، أو كما أراه تاجر النجاح المضمون في تلك المرحلة، أظن أن البحث جمهور جديد كان البند الأول في اتفاق «منير» و«نصر» وهو ما اتضح مع ألبوم «في عشق البنات»، أصبح «منير» صوتًا شعبويًا له أولتراس ودراويش ومريدون، وظهر لقب «الملك» كبديل لاسم «منير»، وجرت مقارنات صحفية هشة لا رابط فنيًا حقيقيًا فيها بين «منير» و«بوب مارلي»، فقدتُ «منير» الذي أعرفه، واستعدته الآن في هذا الركن مختبئًا مع ذكريات تطاردني كلما غنينا سويًا: «وقلت أنا عاشق سقوني كتير المر ورا الشبابيك».

للقصة بقية:

ظلّ الخلاف بين «منير» ويحيى خليل كنيران خامدة تحت رماد الدبلوماسية، نجاح مدوٍّ في وقت قصير أعقبته قطيعة

بعد ألبوم «بريء» في منتصف الثمانينات، وصلت إلى حد إزالة «منير» لاسم يحيى خليل من على الإصدارات الحديثة لألبوماته القديمة وتحديدًا «شبابيك».

وبقي سبب الخلاف مجهولًا في ظلّ رفض يحيى خليل الإفصاح عنه، وتعالي «منير» عن الإجابة عن سؤال واضح هو: «لماذا اختلفت مع يحيى خليل»؟

إلا أن كلاهما لم يكفّ عن الانتقاص من قدر الآخر في مشاكسات صحفية كلما أتيحت الفرصة، ومهما مر الزمن، ففي عام ٢٠٠٦ أحيا مارسيل خليفة حفلًا في مصر، وعلى هامشه سأل صحفي يحيى خليل حول رأيه في تجربه مارسيل خليل، وهل لدينا مثلها في مصر؟ فأجاب قائلًا: «ليس لدينا مثله، وأرفض وصفه بالتجربة الفنية السياسية».

فعقب الصحفي قائلًا: «نحن لدينا محمد منير!»، فقال «خليل» منفعلًا: «هذا هو الهجص وشغل التلات ورقات!».

استغلّت جريدة «المصري اليوم» التصريح، ونشرت تقريرًا تحت عنوان «ملاسنة مفتعلة تفتح جرحًا قديمًا بين منير ويحيي خليل»، كان أشبه بتوثيق للملاسنات المتبادلة بين «منير» و«خليل»، وجاء على لسان «خليل» في التقرير أنه لم يسئ لـ«منير»، وعلاقتهما بلا مشاكل، وكل واحد «راح لحاله»، ولكن المشكلة تعود لعجز البعض ممن يظنون أنفسهم نقادًا عن الفهم، حيث قال: جاء أحدهم لحفل مارسيل وهو غير مقتنع به، وسألني رأيي فقلت له: «معندناش في مصر مثله»! ولأنه مش فاهم أثار موضوع المقارنة الذي أرى أنه «ملوش لازمة».

ولم يصمت «منير» أمام ذلك، فردّ قائلًا في التقرير نفسه: «ياه.. لسه يحيى خليل فاكرني»، وأضاف متسائلًا: «أغنياتي أنا ثلاث ورقات وهجص؟ من الذي يهجص؟ أنا أم فؤاد حداد وعبدالرحيم منصور اللذين غنيت لهما في ألبومي الأخير».

وتساءل «منير»: «هل يصمد الهجص وشغل الثلاث ورقات خمسًا وعشرين سنة؟ وماذا قدّم يحيي خليل بعد أن تركته بخلاف موسيقى الجاز الأمريكية؟ هل شاهد قبل أن يقول هذا حفلاتي في الأوبرا والدول العربية؟ أنا مطرب محترم».

الحقيقة أن الخلاف لم يكن لائقًا بحجمهما، ولكن يظل ما ارتكبه «منير» في حق يحيى خليل بإزالة اسمه من الألبوم تشويهًا للتاريخ، أو كما وصفه الكاتب أشرف عبد الشافي في مقاله بـ«الأهرام» تحت عنوان «يحيى خليل ومحمد منير.. القصة الكاملة لشبابيك الحرية»، حيث كتب: «ظهرت أجيال لا تعرف أن أحد الأبطال الذين صاغوا هذا الفن الخالد تمت إزاحته! صحيح أن خلافات كبيرة قد حدثت، لكن هذا لا يعطي الحق لطرف أن يرتكب تلك الجريمة في حق طرف آخر، ويكتب شهادة إعدامه».

«شبابيك»

غناء: محمد منير

كلمات: مجدي نجيب

ألحان: أحمد منيب

توزيع: يحيى خليل

إنتاج: سونار